المقـدّمَة العـامَّة

الإفخارستيّا

مقدّمة

الإفخارستيّا هي الموضوع الشَّيِّق بامتياز، إن من حيثُ التّأمّلُ فيها، أو سماعُ الكلام التفسيريّ حولَها، أو الكتابةُ عنها، لكن يبقى الاحتفالُ بها هو الأهمّ.

الإفخارستيّا، علّةُ وجودِنا وحياتنا بالمسيح، نقدرُ من خلالها، وعلى أيِّ مستوىً كنّا، أن نبقى بحالة تتلمُذ؛ هذه الكلمة جوهريّةٌ وديناميكيّة، خاصّةً أنّه لا يمكنُ لأيّ مؤمن بالمسيح أن يواصل مسيرته ما لم يكن في حالة تتلمذٍ دائم. فالإفخارستيّا هي مدرسةٌ بكلّ ما للكلمة من معنىً، لأنّنا نتعلّمُ الكثير الكثير عندما نعيش أبعاد هذا السرّ ونحتفل به.

لنتذكّر بدايةً أنّ سرّ الإفخارستيّا هو تأسيسيّ لكلّ حياتنا كمؤمنين بالمسيح. فأتباعُ يسوع أضحَوا كنيسةً منذ أن أسّس يسوع سرّ الإفخارستيّا، لأنّه عليه يُبنى إيماننا، وبه يتغذّى رجاؤنا، وبه نعيش المحبّة بكلّ أبعادها وقوّتها. سرُّ الإفخارستيّا هو الّذي يربطنا بالله وببعضنا البعض؛ فنحن نلتئم كجماعة بفضل هذا الرباط الكيانيّ، ولهذا السبب هو أساسُ كلّ حياتنا وكلّ وجودنا.

نور الإفخارستيّا وآلام الرّبّ

نتوقّف بدايةً عند نقطةٍ جوهريّة، هي علاقة آلام الربّ وموته بالإفخارستيّا. إذا فكّرنا بالآلام كتلك الّتي حلّت بيسوع، والّتي تُنَزَّلُ عادةً بمُرتَكِبي الجرائم، وبمهدِّدي الأمن القوميّ، لَتَبَيَّنَ لنا أنّ اتّهامَ يسوع وموتَه مأساويّان إلى أقصى حدّ.

عندما عزم يهوذا الإسخريوطيّ على تسليم يسوع إلى رؤساءِ الكهنة، وكان الربُّ يعلم، قال له وقت العشاء: «ما أنتَ صانعُه اصنَعْه عاجلاً»؛ فإذا بيهوذا يخرج، وكما يقول يوحنّا الأنجيليّ، «خرَجَ وكان ظلام». ساعة الظّلمة، عندما ترك يهوذا عشاءَ الربّ ورفاق الدرب، هي بداية ساعة النهاية، وهل من نهايةٍ أسوأ؟ بالفعل، إنّ الأمرَ جسيمٌ ومُظلِمٌ ولا يُطاق.

مع هذا، هناك أمرٌ جوهريٌّ يعطي هذا الحدث المأساويّ المظلِم بُعدًا آخر، هناك ضوءٌ مُسَلَّطٌ مسبقاً على حدثِ الآلام والموت: إنه نور الإفخارستيّا الّتي تعطي معنىً لآلام يسوع وموتِه. كان يسوع قد قال: «هذا هو جسدي، هذا هو دمي الذي يُسفَك لأجلِكم». توضَّحَ هذان القولان على الصليب، ولو لم يقلْهما يسوع سابقاً لكان موتُه على الصليب موتَ إنسانٍ متروكٍ مُذَلَّل يُستَهزأ به. نورُ الإفخارستيّا، أي الكلام الذي قالَه يسوع في العشاء الفصحيّ هو الّذي، مع نور القيامة، غيَّرَ معنى الموت على الصليب.

نور القيامة وآلام الرّبّ

الضوءُ الثاني على موت يسوع هو ضوءٌ لاحق؛ ففيما الإفخارستيّا هي الضوء السابق، تشكّل القيامة نورًا ساطعًا ينعكس على الآلام والموت، فيكشح عنها الظلمة ويعطيها أبهى معانيها.

عندما قام يسوع من الموت، لم يعدْ موتُه يُعتَبَر موتَ مجرمين أو ظلمة قاتلة أو نهاية، بل بدايةً لحياةٍ جديدة. لقد فَصَل ضوءُ القيامة الموتَ عن معناه المأساويّ الّذي ينهي كلّ شيء، وفَتَحَ آفاقاً لانطلاق كلّ شيء بفضل القيامة.

بقتلِ يسوع، أرادَ اليهود أن ينتهي أمره، فإذا بموتِه يصبحُ كحبّة الحنطة التي تقعُ في الأرض وتموت، لكن لتعطي حبّات كثيرة.

لذا نقول إنّ الإفخارستيّا سلّطَتِ الضوءَ على الموت قبل الموت، والقيامةُ سلّطَت الضوء على الموت بعد الموت، وكلاهما أعطيا هذا الحدث المأساويَّ قيمتَه الخلاصيّة العظيمة.

الإفخارستيّا والتّذكّر

عندما نحتفل بالذبيحة الإلهيّة، نهتف بصوتٍ واحدٍ مِلؤُهُ رجاءٌ أكيد، مؤسَّسٌ على ذكرى طيّبة، فنقول: «نذكر موتَك، يا ربّ، ونعترف بقيامتك، وننتظر مجيئك». لقد أضحى موتُ يسوع، الّذي شاءه اليهودُ نهايةً، البدايةَ والانطلاقَ لحياةٍ ما كانوا يخالونها، وحدثاً يملأُ ذكرُه القلوبَ بدل الحزن بالفرح والرجاء. لهذا السبب نحن نتذكّر موت يسوع بالترنيم والتهليل والسرور. لكن، في أساس هذا التذكّر والفرح هو سرّ الإفخارستيّا. بَطُلَ الموتُ أن يكون نهايةً، لأنّنا نؤمن أنّ جسد الرّبّ ودمه هما علّة حياتنا هنا على الأرض وهناك في السماء. لذلك نحن في حالة قيامةٍ دائمة وليس في حالة موت. وحدَها الخطيئةُ تُميت، وجسدُ الرّبّ ودمه يُحييان. لهذا نحن نتذكّر موت الرّبّ، ونعترف بحدث القيامة ونبشِّر به، ونعيش حدث القيامة بما تهبنا الإفخارستيّا من حياة تتواصل في المجد السماويّ. نحن أبدًا مشدودون إلى تلك الحياة، لأنّ الإفخارستيّا تفتح لنا الآفاق على الدّهر الآتي وعلى المستقبل. بهذا التذكّر إذاً نحن نعيش التواصل مع المسيح، ونبشِّر به، حتّى مجيئه.

«هذه الكأس هي العهد الجديد لدمي»

عندما تَفَوَّهَ إرميا بعبارة «العهد الجديد»، في القرن السادس قبل الميلاد، التي تحملُ في طيّاتها الانتفاضةَ على ما أصبح باليًا، والرفضَ لما أضحى عقبةً في وجه النموّ والتّقدّم والارتقاء نحو الله، والّتي رأى اليهود أنها ثوريّة وهدّامة، تمسّ العهد الّذي أعطاه الله على يد موسى، لأنّ التكلّم على عهدٍ جديد يعني تجريد العهد من معناه. في الواقع، لم يَقُل إرميا إنّ العهد قد تغيّر أو بَلِيَ، بل إنّ بني إسرائيل قد أفرغوه من مضمونه، لهذا تجرَّأَ وبَشَّرَ بعهد جديد باسم الرّبّ وليس باسمِه هو. الرّبُّ قال: «إنّي أُبتُّ عهداً جديداً مع بنيكم لا كالعهد الّذي بَتَتُّهُ مع آبائكم»، والنتيجة ستكون أنّ كلّ الناس سيعرفون الله (رج إر ٣١: ٣١-٣٤، والرسالة إلى العبرانيّين).

لماذا اعتمدَ يسوعُ ذاتَ العبارة في تأسيس الإفخارستيّا؟ لقد أدركَ أنّ بني إسرائيل قد أهملوا جوهر العهد، وتعلّقوا عن ضلال بمعناه الحَرْفِيّ، فصاروا يلتزمون

بالمظاهر وحسب، أمّا الروح فكان مَيتًا. وهذا ما جعلَ العهدَ القديمَ غيرَ فاعلٍ، فبدا وكأنّه في حالةِ نقصٍ وعجز. إذاً كان لا بدَّ من العهد الجديد.

ما هو العهدُ الجديدُ الّذي بَتَّهُ يسوعُ بدمه؟

يعني العهدُ القِرانَ والالتزامَ والرباطَ بين الله وشعبه، وهذا ما نقضه بنو إسرائيل وخانوه. عنه يتكلّم هُوشَعُ بتوسُّعٍ عن طريق الكلام على الخيانة الزوجيّة، أي خيانة إسرائيل لإلهه. بابنه يسوع جَدَّدَ اللهُ العهد، لهذا تكلَّمَ يسوعُ على «العهد الجديد».

مضمون هذا العهد الجديد هو ارتباطٌ وثيق بين الله والإنسان، وهذا الرباط مختومٌ بدم يسوع. في العهد القديم، ألدمُ هو الحياة، وبالتالي هو يخصّ اللهَ مُعطي الحياة وسيّدَها. لذلك لم يَلعَن اللهُ آدمَ وحوّاءَ عند السقطة، لكنّه لَعَنَ قايينَ عندما قَتَلَ، لأنّ الدمَ هو الحياة، وهي بيد الله وحده. هكذا، عندما أعطانا يسوع دمَه أعطانا بذات الفعل الحياةَ والعهدَ الجديد. وبما أنّنا أبناءُ العهد، أبناءُ الإفخارستيّا، فنحن بالتالي أبناءُ الأمانة والسّهر، لأنّنا نحبّ مَن أحبّنا هو أوّلاً، ومن دون السّهر لا يمكننا المحافظة على العهد وعلى معنى الإفخارستيّا ومفاعيلها العظيمة. إنّ الإفخارستيّا هي الّتي تعطي الطاقة والقدرة لعيش الأمانة للعهد.

إكرام جسد الرّبّ ودمه

مَن يأكل جسد الرّبّ ويشرب دمه، لا يحقُّ له أن يسيء إلى أحد. إذا أسأنا من خلال قلّةِ أمانتِنا للعهد، ومن خلال عدم تذكُّرنا لما أرادنا الربُّ أن نتذكّر، فإنّنا نتناولُ دينونةً لنفسنا؛ وكلامُ مار بولس في هذا السياق واضح جليّ: «مَن يأكل جسدَ الرب ويشرب دمَه عن غير استحقاق، يأكل دينونةً لنفسه»، علمًا أنّ همَّ مار بولس الأساسيّ هنا هو الجماعة. لذلك يبدأ إكرام جسد الرّبّ ودمه بمحبّة أخي الّذي أراه، وبالأمانة له وللجماعة، مع التأكيد على أنّ العيش كإخوةٍ في الجماعة يجعلنا أهلاً لتناولِ جسد الرّبّ ودمه، وللنموّ معًا في طريق الكمال.

من هنا البعد الجماعيّ لإكرامنا لجسد الرّبّ ودمه، والبعد المسلكيّ الّذي ينتج عن ذلك، لأنّ الإفخارستيّا هي أيضًا مدرسة الفضائل، والقيم، والأخلاق، مدرسة

الشراكة، وهي الّتي تعلّمنا أنّ محبّة الآخر تتطلّب منّا أن يصبح الواحدُ فادياً لأخيه كما الرّبّ، وبهذا نُكرّم بذات الفعل سرّ الإفخارستيّا المقدّس.

ينبغي أن نضيف أنّ محبّتنا للقربان تدفعنا إلى إكرامه أيضًا من خلال الوقت الّذي نُمضيه في حضرته القدّوسة، لهذا كان مار شربل ومار نعمة الله، مَثَلاً، يبقيان مسمَّرَين الساعاتِ الطوالَ أمام القربان، سجودًا وتأمُّلاً وعبادة.

خاتمة

هكذا يكون لسرّ الإفخارستيّا الأولويّة في حياتنا، ومتى أعطيناها الأولويّة أصبحنا بدورنا من الأوائل في مدرسة الرّبّ لأنّها تستحقّ الجهاد.

آمل أن تفتح لنا هذا المحاضرات آفاقًا جديدةً لنفكّر ونتعمّق ونلتزم تجاه هذا السرّ العظيم الّذي كلَّفَ يسوع حياتَه، فيعلّمنا أن نكون صانعي حياة لنا وللآخرين، كما فعل الرّبّ، له المجد إلى دهر الدهور.

الأب أيّوب شهوان

مدير معهد الليتورجيّا